

الدراسات والأبحاث | Research Papers

سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية: من البراديبم الوضعي إلى البراديبم التأويلي

**The question of the method in
sociological knowledge:
From positivism paradigm to
interpretive paradigm**

عبد الحليم مهورباشة^(١)

Abdel Halim Mahorbach

حاولت هذه البديل أن تتجاوز التناقضات والسلبيات التي وقع فيها البراديفم بثنائيته الوضعي والتأويلي، إلا أنها أثبتنا أن هذه البديل على قيمتها المنهجية لم ترقى إلى مرتبة البراديفم البديل.

الكلمات المفتاحية: المنهج، المعرفة السوسيولوجية، البراديفم، الوضعيه، التأويلية.

Abstract:

This research paper aims to try to provide an answer to the question of the approach in sociological knowledge, Proceeding from a Directed hypothesis, it assumes that sociological knowledge has been subject to paradigmatics in its historical cognitive course, and employs a critical analytical method in its testing, So we talked in the first element: the legitimacy of Classification sociological knowledge from a paradigm positivism; We indicated that classification using theory or method does not help us in determining the determinants of sociological knowledge, And we highlighted in the second element: the nature of positivism paradigm in sociological knowledge, Referring to his basic methodological rules, such as his concept of scientific truth, his view of social phenomena as objects, and the

ملخص البحث:

تهدف هذه الورقة البحثية الى محاولة تقديم إجابة عن سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية، انطلاقاً من فرضية موجهة، ترى أن المعرفة السوسيولوجية خضعت لبراديفمات في مسارها المعرفي التاريخي، وتوظف المنهج التحليلي النقدي في اختبارها، فتناولنا في العنصر الاول: مشروعية تصنيف المعرفة السوسيولوجية من منظور البراديفم، وبيننا أن التصنيف باستخدام النظرية أو المنهج لا يسعنا في الوقوف على محددات المعرفة السوسيولوجية، وأبرزنا في العنصر الثاني: طبيعة البراديفم الوضعي في المعرفة السوسيولوجية، بالإشارة الى قواعده المنهجية الأساسية، كمفهومه للحقيقة العلمية، ورؤيته للظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء، والتفسير السببي لها، وتناولنا في العنصر الثالث سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية من منظور البراديفم التأويلي، أشرنا الى مرجعيته الفلسفية الكانتية الجديدة، ورؤيته لماهية الظواهر الاجتماعية، وقواعده في فهم وتأويل الفعل الاجتماعي، وفي العنصر الرابع والأخير، عرضنا مجموعة بدائل منهجية طرحت في المعرفة السوسيولوجية المعاصرة، كالنقدية والبراغماتية، حيث

منهجها المخصوص. ولكل مقاربة نظرية أدواتها التقنية والمنهجية في كيفية دراسة الظاهرة الاجتماعية. لكن هذا التعدد في الإجابات لا يحجب عنا تلك التقطيعات المعرفية في المنطلقات الإبستيمية التي يقوم عليها كل منهج في السوسيولوجيا. فتبعد ظاهريًا هذه المناهج وكأنها تتنمي إلى أرضيات إبستيمولوجية متناقضة. بينما هي في الحقيقة تشع من براديفم معرفي واحد أو اثنين على أكثر تقدير.

تأتي أهمية الاشتغال على سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية كونه من أكثر الأسئلة تداولاً بين الباحثين. ونظرًا لاختلاف الإجابات عنه، فمن الباحثين، من يرى أن المعرفة السوسيولوجية لم تتمكن من حسم خياراتها المنهجية والمفهومية والنظرية منذ لحظة ميلادها إلى يومنا هذا، بينما يرى باحثون آخرون، أن الإجابات المتعددة عن هذا السؤال تعكس حيوية المعرفة السوسيولوجية وقدرتها على تطوير أدواتها وتقنياتها المنهجية في دراسة الظاهرة الاجتماعية. تلك الظاهرة التي لا تجمد على وضع اجتماعي واحد، بل تعرف تغيرات وتحولات لا نهاية لها.

ما يزيد برأينا من تعقيد هذا السؤال، هو وقوف الباحث أمام معرفة سوسيولوجية تتسم بتشظي نظرياتها وتعدد أساقفتها التفسيرية والتبريرية. واختلاف مقاربتها المنهجية للظواهر الاجتماعية، لذا تسعى هذه الدراسة إلى توظيف البراديفم كأداة منهجية

causal interpretation of them, In the third element : The question of the curriculum in sociological knowledge from the perspective of Al-Baraigham interpretive, We referred to his reference to the new Kantian philosophy, his vision of what are social phenomena, and his rules for understanding and interpreting social action, And in the fourth and last element, we presented a set of methodological alternatives that were brought up in contemporary sociological knowledge, such as critical and pragmatic, As these alternatives attempted to overcome the contradictions in which the pradigm occurred with its positional and interpretative duality, we have demonstrated that these alternatives to their methodological value have not been elevated to the alternative paradigm.

Keywords :Method,Paradigm, Positivism, Interpretative, Sociological knowledge

مقدمة

يثير سؤال المنهج في العلوم الاجتماعية عمومًا وعلم الاجتماع خصوصًا موجة من النقاشات الأكademie والإبستيمولوجية بين الباحثين والمفكرين، وتأتي الإجابة عنه بصيغ متعددة، إذا طالعنا التراث المعرفي السسيولوجي. نجد أن لكل نظرية اجتماعية



ما فتئ أن تعرض لانتقادات إبستيمولوجية بينت محدوديته المنهجية في تحليل وتفسير الظواهر الاجتماعية، في المقابل، تناهى التيار المنهجي الذي أطلقه البراديفم التأويلي في عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم، ترجمة انهمام المشتغلين في الحقل السوسيولوجي بالبحوث الكيفية والدراسات الميكروسوسيولوجية. إلا أن هذا البراديفم لم يسلم من النقد في المعرفة السوسيولوجية المعاصرة، التي دعى روادها ومؤسسوها إلى التحرر من البراديفم التأويلي. ودعوا إلى تأسيس براديفمات منهجية بديلة، تُمكّننا من فهم تعقيدات الظواهر الاجتماعية المعاصرة، من هذا المنطلق، سناحول في هذه الورقة البحثية أن نجيب عن التساؤلات الآتية:

١. ما طبيعة البراديفمات التي خضعت لها المعرفة السوسيولوجية؟
٢. ما مقومات المنهج في البراديفم الوضعي في المعرفة السوسيولوجية؟
٣. ما هي قواعد وأسس المنهج في البراديفم التأويلي في المعرفة السوسيولوجية؟
٤. ما هي أبرز الانتقادات التي وجهت للبراديفم (الوضعي والتأويلي) في المعرفة السوسيولوجية المعاصرة؟ وما طبيعة البدائل المنهجية التي افترحت في المعرفة السوسيولوجية المعاصرة؟

تساعدنا في رسم صورة مركبة حول المعرفة السوسيولوجية من جهة، والكشف عن طبيعة المنهج الذي ساد هذه المعرفة من جهة أخرى. على اعتبار أن البراديفم هو الذي يؤطر المنهج، ويحدد قواعده وخطوطاته الإجرائية، رغم أننا سنكون حذرين منهجيًّا عند توظيف مفهوم البراديفم في المعرفة السوسيولوجية؛ لأننا سنعمل على تكييف البراديفم الإرشادي عند توماس كون بما يفيد الاجابة عن سؤال المنهج في علم الاجتماع.

نعتقد أن قراءة فاحصة للمعرفة السوسيولوجية تشي لنا بأنها خضعت لبراديفمات معرفية، اخترقتها منذ لحظتها التأسيسية الأولى، حيث انبني كل براديفم على رؤية أنطولوجية للعالم الاجتماعي وظواهره، وعلى رؤية إبستيمولوجية لكيفية دراسة الظواهر الاجتماعية، فنجد أن هناك براديفمين رئيسيين هيمنا على المعرفة السوسيولوجية، تولدت في فلكهما العديد من المفاهيم والمناهج والنظريات. يتمثل الأول في البراديفم الوضعي، الذي أسس منطلقاته وقواعده المنهجية أعمال دوركايم، ويتمثل الثاني في البراديفم التأويلي الذي أسس له أعمال ماكس فيبر ويحتوي كل براديفم على تصورات وقواعد منهجية لكيفية دراسة الظواهر الاجتماعية.

هيمن وساد البراديفم الوضعي لعقود زمنية طويلة، ترجمتها سيطرة البحوث الكمية على المؤسسات الأكاديمية، لكنه

الطبيعية، فلئن كانت هذه الأخيرة، تخضع لنوع من الانتقالات الخطية عبر مسارها العلمي، حيث تميز كل مرحلة من تاريخ العلم بمجموعة من المناهج والفرضيات والنظريات، خاضعة لثباتي التراكم والقطيعة في كل مرحلة تاريخية، حيث نجد أن توماس كون استطاع أن يحقب المعرفة في العلوم الطبيعية بواسطة النموذج المعرفي، «النموذج هو ما يؤسس ويحافظ على الإجماع بين المتخصصين فيما يتعلق بمشروعية المشكلات الحقيقة، التي يجب العلم على حلها، ومنهجيات الاستخدام وطرق إيجاد الحلول ملموسة»^(١).

إذا أتينا إلى مجال العلوم الاجتماعية، فإننا سنجد أن الآليات الإبستيمولوجية التي استخدمت في التحقيق المعرفي للعلوم الطبيعية، تكاد لا تتطابق على معظم فروع العلوم الاجتماعية، فهل يمكننا أن نحقب التطور التاريخي للمعرفة في العلوم الاجتماعية بواسطة البراديفم كما فعل توماس كون؟ هل تعد العلوم الاجتماعية علوفاً قياسية؟، وعبارة علم قياسي: «تعني البحث الذي رسم بناءه على إنجاز، أو أكثر من إنجازات الماضي، وهي إنجازات يعترف مجتمع علمي محدد، ول فترة زمنية، بأنها تشكل الأساس لممارسته العلمية مستقبلاً»^(٢).

أولاً: فرضية الدراسة ومنهجها:

الفرضية البحثية التي نطلق منها في هذه الدراسة، تفترض أن المعرفة السosiولوجية خضعت لبراديفات معرفية عبر مسارها المعرفي التاريخي، وأن المناهج والتقنيات والأدوات تحددها طبيعة هذه البراديفات، وهنا، نجد البراديفم الوضعي الذي أسس للمنهج الوضعي في دراسة الظواهر الاجتماعية، والبراديفم التأويلي الذي أسس للمنهج التأويلي في دراسة السosiولوجية المعاصرة بدائل منهجية إلى أنها لم ترق إلى مرتبة البراديفم، وبقيت محاولات منهجية ومعرفية مشتّتة وموزعين بين أعمال العديد من الباحثين، وسنستخدم المنهج التحليلي النقيدي في التحقق من صحة هذه الفرضية البحثية.

ثانياً: في مشروعية تصنيف المعرفة السosiولوجية من منظور البراديفم:

يُقر معظم المشتغلين في فلسفة العلوم الاجتماعية، أن هناك صعوبات إبستيمولوجية في عملية التحقيق التاريخي لمعرفة هذه العلوم، تختلف هذه العلوم في مجال تراكم معارفها ونظرياتها ومنهجها عن العلوم

(١) Gilles Willett, Paradigme, théorie, modèle, schéma : qu'est-ce donc ?, Communication et organisation [En ligne], 10 | 1996, mis en ligne le 26 mars 2012, consulté le 28 février 2020. URL

(٢) توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة: شوقي جلال، العدد: ٦٧٨، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣، ص٣٩.



في البداية على تقديم تبرير معرفي ومنهجي لخضاعها لمفهوم البراديفم (النموذج المعرفي). وسنحاول أن نفكك الألغام الإبستيمولوجية التي تعرض طريقنا في سبيل رسم صورة جلية واضحة لهذه المعرفة، فأول سؤال سيواجهنا به القارئ: ما مشروعية توظيف البراديفم في تصنيف المعرفة السوسيولوجية؟ ونحن، نقرأ في المسار التاريخي لهذه العلوم محاولات عديدة، للوقوف على أشكال وأنماط هذه المعرفة. فاستخدمت النظرية العلمية كمعيار في عملية التصنيف في السنتين والسبعينات من القرن الماضي، تحت وطأة النزعة المتنامية لتأسيس هذه العلوم داخل الجامعات الحديثة، وتحت ضغط تجزئة المقرارات الدراسية والمناهج التعليمية، حيث لم يعد ممكناً عرض هذه المعرفة دون تبويبها وتصنيفها، فظهرت العديد من التصنيفات للمعرفة السوسيولوجية. نعثر في هذا الصدد على محاولة ينقولا تماشيف، وبيتريم سوركين، وغيرهما.

وفي السياق نفسه، هناك منأخذ بمعيار الموقف من المجتمع، وقسم المعرفة السوسيولوجية إلى نظريات محافظة، ونظريات نقدية، وهناك من اتخذ من وحدة التحليل السوسيولوجي معياراً للتصنيف، وقسمها إلى الماكروسociology والميكروسociology، ونجد من الباحثين من قسمها إلى تيارات واتجاهات، يضم كل اتجاه مجموعة من العلماء المؤسسين، إلا أن النقد الذي نوجهه لهذه

السؤال الذي يُطرح هنا: هل تشكلت جماعات علمية في العلوم الاجتماعية واتفاق باحثوها على ممارسات منهجية تلزم الباحثين القادمين إليها بها؟ أم أن هذه العلوم تعاني من التشطي النظري والتعدد المنهجي بشكل مستمر منذ لحظة ولادتها؟ نظراً لمجموعة من الخصوصيات، التي تتعلق بالبنية الإبستيمولوجية الداخلية لهذه العلوم، كونها علوماً تهتم بدراسة الإنسان، ونحن نعلم، مثار الجدل حول ماهية الإنسان، وانفلاته من قبضة الحتمية الطبيعية، كما أننا نجد أن هذه العلوم تعاني من استباحة مستمرة لحدودها ومجال اشتغالها من طرف العلوم الطبيعية، فغالباً ما تستعير هذه العلوم منها مقولات ومفاهيم وتقنيات منهجية: كمفهوم النسق، العضوية، التمايز، التوازن، البنية، المورفولوجيا وغيرها، لذلك تشغل وضعاً إبستيمولوجيا فلقاً على الدوام، يُوحى بالنظر إليها أنها علوم مأزومة، في حين، أن أزمتها حالة مصادبة لها على الدوام، وتنهك بباحثتها ومستغليها، بالإضافة إلى إشكالية التحيزات الذاتية والثقافية والأيديولوجية التي تخترق ممارساتها، وتعاني من استباحة مجال اشتغالها من طرف المؤسسات السياسية، مما يجعلها تتحنى في مرات طلباتها خائنة مبادئها الإبستيمولوجية وقواعدها المنهجية.

من هذا المنطلق، إذا أتينا إلى المعرفة السوسيولوجية باعتبارها مركز المعرفة في العلوم الاجتماعية، فإننا سنكون مجردين

المنظلات الإبستيمولوجية، والتصورات الأنطولوجية، والإجراءات المنهجية، وكل واحد منها يفضل جانباً إبستيمولوجيا معيناً (وصف، تبيؤ، سبية)، أو موقفاً أنطولوجيا معيناً(كلية، فردانية)»^(٢).

في هذا السياق، نقرب هنا من فكرة البرنامج العلمي الذي وضعه امري لاكوسن في فلسفة العلوم، حيث يرى أن: «الإنجازات العلمية العظيمة هي براجم بحثية يمكن تقييمها من حيث المشكلات التقدمية والانتكاسية، تكون الثورات العلمية من برنامج بحثي يحل محل برنامج آخر، توفر هذه المنهجية إعادة بناء عقلاني للعلوم، من الأفضل تمثيله عكس التكذيب والتواافقية، فكلهما يستغير عناصر أساسية»^(٣).

ذلك من التبريرات القوية التي نسوقها في هذا الموضوع، أننا في العالم العربي، نستهلك المنتجات المعرفية الغربية، ولم نصل بعد إلى مرحلة الانتاج المعرفي، نظراً لعدة عوامل وأسباب لا يسعنا المقام لذكرها، وبالتالي، نجد صعوبة بوصفنا باحثين في استيعاب المعرفة السوسيولوجية، بسبب معوقات إبستيمولوجية عديدة، كطبيعة اللغة التي كتبت بها، ومشكلة ترجمة المصطلحات العلمية؛ لذا

(٢) حاك مهان، الخطابات علم الاجتماع، ترجمة: عياشي عص嗣طا (الأردن: دار المسيرة، ٢٠١٤)، ص٨.

(٣) Fetcu, Nicolae,Imre Lakatos, La méthodologie des programmes de recherche scientifique , SetThings (25 mars 2019), MultiMedia Publishing; URL = <https://www.setthings.com/fr/imre-lakatos-la-methodologie-des-programmes-de-recherchescientifique>

التصنيفات لأشكال المعرفة السوسيولوجية، إنها تتغافل عن الانقسام الحاد الذي نجده داخل الاتجاه النظري الواحد، وكذلك التحيز الأيديولوجي المصاحب لكل عملية التصنيف، حيث توصف بعض النظريات بالعلمية، بينما الأخرى توصف بغير العلمية، مثلًا يعتبر البعض النظرية الماركسية نظرية علمية، في حين، يراها آخرون مجرد أيديولوجيا، مع الاشارة إلى أن: «أي نظرية تقوم بوصف الواقع لا بد أن تطرح بين شاياها-تصريحاً أو تلميحاً- افتراضات عما يجب أن يكون عليه شكل ذلك الواقع، وقد دعا ألفن جولدنر هذه الافتراضات افتراضات المجال، وبناء على ذلك، فإن النظرية دائمًا تنطوي على نظرة معينة إلى الفعل السياسي، وعلى أشكال الفعل الممكنة والمستحبة»^(٤).

بناء على هذا، نعتقد أن تصنيف المعرفة السوسيولوجية انطلاقاً من النظريات يُعقد عملية الاستيعاب المعرفي لها، ويرسم أمامنا صورة مشوهة عن مسارات نموها وتطورها، لذا نرى أن البراديفم الذي وظفه توماس كون في فلسفة العلم الطبيعي، مع إدخال بعض التعديلات الصورية والمنطقية عليه، يُسعفنا في تحقيب المعرفة السوسيولوجية، بحيث كل براديفم سوسيولوجي، هو عابر عن كل مركب من النظريات، «ومن الأيديولوجيات، من الأفكار الكبرى، من المفاهيم، مثل الوضعيية، البنيةوية، يقوم بانتقاء مجموعة محددة من

(٤) أيان كريبي، النظرية في علم الاجتماع، من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة: محمد حسين غلوم، العدد: ٤٤، (الكويت: المجلس الأعلى للفنون والثقافة والأدب)، ١٩٩٩، ص٣٧.



التي ندافع عنها، حيث يرى آلان توران أنه لتصنيف النظريات والاتجاهات النظرية في حقل معرفي، يجب توافر ثلاثة شروط رئيسية، وهي: «أن تكون وحدة المعرفة في هذا الحقل محددة وواضحة، تكامل نتائج البحث في نظرية واحدة، والتعدد النظري يكون نظرياً خالصاً، وليس تعبيراً عن الإيديولوجيا والتراث الذاتية»^(٢).

يتمثل المعيار الأساسي الذي اعتمد عليه توران في طبيعة العلاقة بين النسق الاجتماعي والفاعل الاجتماعي. وفي طبيعة العلاقة بين المؤسسات ودوابع الفاعلين، «النسق الاجتماعي محدد بواسطة العلاقة، التي تظهر بين القيم والمعايير وأشكال التنظيم داخل النسق، وتوجيهات الفاعلين الاجتماعيين»^(٣). فخلص توران إلى أن المعرفة السوسيولوجية عرفت ثلاثة مدارس كبرى: المدرسة البنائية الوظيفية، والمدرسة البنائية الماركسية، المدرسة التفاعلية الرمزية، ونرى أن هذا التصنيف على ما فيه من تعميم مبالغ فيه، إلا أن معاييره أكثر عقلانية في تصنيف المعرفة في علم الاجتماع. وسوف يفيدنا في إجابتنا عن سؤال المنهج في علاقته بالبراديفمات المعرفية.

نجد من الباحثين المعاصرين من استخدم البراديفم كميuar تصنفي عالم

يصعب علينا استيعاب النظريات؛ لأنها من الغزارة والتعدد ما يجعلنا حائرین أمامها، نرى من وجهة نظرنا أن توظيف البراديفم يُساهِم في عملية الاستيعاب المعرفي لسؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية، فتطبيق البراديفم في دراسة التاريخ المعرفي للعلوم الاجتماعية يغطي فائدة ثلاثة: «الأول: هي أنه ليس له أي هدف معياري وتوجيهي، ولا يزعم أنه يعلن ما هو العلم الحقيقي، بعد ذلك يطرح هذا المفهوم أداة للوصف المنطقي قائمة على الأقرب من الإجراءات المستخدمة فعلياً في العمل اليومي للباحثين، وفي الأخير هذه الأداة تجعل المقارنة بين الميادين ممكناً، وتسمح بطرح مسألة المعرفة العلمية بتعابيرات متعددة»^(٤).

بعد أن بررنا مشروعية توظيف البراديفم، ننتقل إلى الإجابة عن سؤال: **ما هي البراديفمات الأساسية التي خضعت لها المعرفة السوسيولوجية عبر مسارها التاريخي المعرفي؟** نجد في هذا الصدد العديد من الإجابات المعرفية التي سبقنا إليها باحثون متخصصون . سنحاول أن نستأنس بعملين رئيسيين في تصنيف المعرفة السوسيولوجية بما يخدم الإشكال المركزي الذي نحاول أن نجيب عنه، نعتقد أن المحاولة التي قدمها عالم الاجتماع آلان توران، تقترب من فكرة توظيف البراديفم

(١) فليب كابان، جان فرنسو دروتيه، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، ترجمة: اياس حسن. طاً (سوريا: دار الفرقـ للطباعة والنـشر والتـوزـيع، ٢٠١٠)، ص ٨٢.

(2) Alain Touren, LES ÉCOLES SOCIOLOGIQUES, Cahiers de recherche sociologique, no 14, printemps 1990, p21.
(3) Ibid.p22.

المعيار معايير أخرى من قبيل: معيار المنهج والحقيقة العلمية، والقواعد الإبستيمولوجية، والإفتراضات المنهجية.

قمت بتطوير فكرة ريمون بدون حول البراديفات في علم الاجتماع^(٣)، وخلصت إلى أن هناك براديفمين رئيسين ساداً وهما في المعرفة السوسيولوجية، وهما: البراديف الوضعي، والبراديف التأويلي، ويقوم كل براديف على مرجعية فلسفية محددة، يبني في ظلها رؤيته للحقيقة العلمية، ويحدد طبيعة الموضوع القابل للدراسة العلمية، وكذلك يحدد المنهج الذي يمكننا من دراسة الظواهر الاجتماعية. ويشكل البراديف من مجموعة من النظريات التي تبدو في ظاهرها أنها تختلف لكنها تخضع لنفس المبادئ المعرفية والقواعد المنهجية.

فنجد أن المعرفة السوسيولوجية من لحظة انبثاقها إلى يومنا هذا خضعت لبراديفمين. الأول: البراديف الوضعي بمختلف تياراته النظرية ومذاهبه المنهجية، والثاني: البراديف التأويلي بكل تياراته ونظرياته ومفاهيميه، وهنا، نؤكد على أن البراديف يخضع لثنائية: القطعية والتواصل. عكس البراديف الإرشادي بمفهومه عند توماس كون، الذي يخضع للقطعية الجذرية، نحن، هنا لا نتحدث عن ثورات وانقلابات معرفية كلية حدثت في المعرفة السوسيولوجية، وإنما أتحدث عن قطائع حدثت في بعض الإفتراضات المنهجية.

(3) Ibid.

الاجتماع ريمون بدون، الذي يرى أن المعرفة السوسيولوجية عبر مسیرتها التاريخية، خضعت للبراديف الحتمي، الذي يضم كل من: الماركسية، التوكتفيلية، الفيبريرية، الميرتونية، وللبراديف التفاعلي الذي يضم: الوظيفي، الثقافي، الشمولي الحتمي المنهجي، حيث يرفض البراديف الحتمي: «استقلالية الفاعل الاجتماعي، يتعامل معه سلبياً، تفسر الظاهرة الاجتماعية باعتبارها محصلة مجموعة السلوكيات محددة المعنى مسبقاً، يركز على الدور والقيم والمعايير إدخال القيم والمعايير تحديد الفعل بشكل حتمي، الحتمية وصفية واحتمالية الفعل الاجتماعي»^(٤).

ينطلق البراديف التفاعلي من الفاعل الاجتماعي، الذي يضع في حسبانه سلوكيات الآخرين . سنحاول في هذه الورقة البحثية، أن نبني على هذا التصنيف، مع توسيعه بما يخدم إشكالية الدراسة وما تروم تحقيقه؛ لأن عملية التصنيف التي قدمها ريمون بدون، تقوم على مبدأ جوهري معياري يتمثل في طبيعة العلاقة بين الفاعل الاجتماعي والنسق الاجتماعي^(٥). بينما نريد أن نزيد أن نصف المعرفة السوسيولوجية وفق لمبدأ معياري متعدد، يعتبر معيار ريمون بدون هو أحد المعايير التي سنواظفها، فهناك بالإضافة لهذا

(1) Yao Assogba, *La sociologie de Raymond Boudon. Essai de synthèse et applications de l'individualisme méthodologique*, Québec : Les Presses de l'Université Laval-l'Harmattan, 1999, p13.

(2) Boudon Raymond ,*Traité de sociologie*, Paris, Presses Universitaires de France, 1992.



المجتمعات»^(١). بالإضافة إلى أن الفلسفة الوضعية كنظريّة في المعرفة تختلف عن نظرية المعرفة التجريبية ونظرية المعرفة العقلانيّة، حيث طرحت خيارات معرفيًّا جديداً، يُستند إلى فكرة جوهريّة، ترى بأن هناك علاقة بين المعرفة الإنسانية والأطر الاجتماعيّة، كما تعتمد المعرفة الإنسانية على منهج واحد في دراسة الظواهر الاجتماعيّة والطبيعية.

نشأت السوسيولوجيا كآخر علم في سلسلة العلوم الوضعية، يعلوها مرتبة، على اعتبار أنه يُوظف ما تصل إليه بقية العلوم في المناهج في دراسة الظواهر الاجتماعيّة، سيكون من السهل علينا الآن أن نحدد بدقة الطبيعة الصحيحة للعلوم الوضعية، نرى مما سبق، أن طابعها الأساسي هو اعتبار جميع الظواهر خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة، ويكون اكتشافها وتقليصها إلى أقل عدد ممكن، هدفًا لجميع جهود المفكّر الوضعي من ناحية أخرى، فإن البحث عن ما يسمى بالأسباب، سواء كانت أساسية أو نهائية، يبدو عديم الجدوى وبلا معنى^(٢). واعتبرت السوسيولوجيا بمثابة الديانة الجديدة، التي أتت على أنقضاض المعرفة الدينية الغيبيّة، وهنا، حملت المعرفة

لكنها حافظت على افتراضات منهجية أخرى في نفس الوقت، مثل البراديفم الوضعي عرف قطبيعة جزئية عند البنويين على مستوى رؤية الظاهرة الاجتماعيّة، عندما أرجعوا الظاهرة الاجتماعيّة إلى هيمنة البينة الاجتماعيّة، مخالفين العديد من القواعد التي صكها دوركايم في منهجه الوضعي، كقاعدة تمثلات الأفراد للظواهر الاجتماعيّة، وكذلك نفس الأمر، حدث مع التيارات النقدية والنسوية في تعديلها لبعض قواعد البراديفم التأويلي في دراسة الظواهر الاجتماعيّة المعاصرة.

ثالثاً: سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية من منظور البراديفم الوضعي:

ساد البراديفم الوضعي في المعرفة السوسيولوجية لعقود زمنية طويلة في الجامعات والمؤسسات البحثية، وهيمن على الرؤى النظرية والمنهجية للباحثين في علم الاجتماع، حيث تُعتبر الفلسفة الوضعية إطاره المرجعي، وتقوم الفلسفة الوضعية على فكرة دراسة الاجتماعي الواقع، فأكّدت كونت على الملاحظة والمقارنة والتجربة في علم الاجتماع، وهي نفس الخطوات المنهجية المستخدمة في الكمياء والبيولوجيا، وتسعى السوسيولوجيا إلى صياغة القوانين العلمية التي تحكم تطور

(1) Moustfa Boutafnouchet, introduction à la sociologie, les fondements, Office national des publications universitaire, algérie, 1990, p18.

(2) Comte, Cours de philosophie positive I. Leçons 1 à 45, éd. M. Serres, F. Dagognet, A. Sinaceur, Paris : Hermann, 1998, p25/26.

بين الوضعين الرئيسيين لإثبات الحقيقة، مع معادة الفلسفة الحديثة في شقيها (الوضع العقلاني والوضع التجاري)^(١).

بتعبير أدق، يفترض كل علم فرضيات ذات طبيعة محددة، ويحدد أنواعاً من الحقائق، وهذا يعني بشكل غير مباشر تحديد جانب واحد من نظام حقيقي أو نظام للعالم لا يُقرأ بشكل مباشر ولكن الذي نشير إليه، وبالتالي، فإن العلم أو هذا النظام للعالم يزودنا بمعرفة معينة ودقيقة بالإضافة إلى المعرفة النسبية والجزئية، وبهذا المعنى، فإن الوضعيية تتصحّن بالتخلي عن روح المطلق (اللهوت والميتافيزيقيا)، والاعتراف النهائي بالجانب التقريري للمعرفة الذي يستمد منها صلحيتها، اليقين النسبي هي الحقائق العلمية، هذه النسبية لا تؤدي إلى أي شكوك ولا تستبعد تطبيق المعرفة^(٢).

بناءً على مفهوم الحقيقة العلمية في البراديفم الوضعي، تكون الحقيقة السوسiologicalية منفصلة عن الذات الإنسانية، يمكن الوصول إليها من خلال الملاحظات الحسية المتكررة للعالم الاجتماعي. «فكل نموذج ينحو إلى تشكيل علم عادي، أي صيغة خاصة من المعرفة تستبعد التأويلات الخارجية عن النموذج، وكذلك تصورات النماذج المناهضة: ضمن

السوسiologicalية في جيناتها التأسيسة فكرة الإصلاح الاجتماعي.

يقوم البراديفم الوضعي في المعرفة السوسiologicalية على مجموعة من الافتراضات المؤسسة لطبيعة المنهج الذي يمكننا من دراسة الظواهر الاجتماعية، يتمثل أول افتراض مركزي النظر إلى الحقيقة العلمية وما هيّها وكيفية الوصول إليها، وهنا، نطرح سؤال عن ماهية الحقيقة العلمية؟ كما هو معلوم في تاريخ الفلسفة الوضعيّة، أنها عدلّت من مفهوم الحقيقة الميتافيزيقية واعتبرتها مرحلة سابقة على المرحلة الوضعيّة، وخلافاً للحقيقة الجاهزة المبثوثة في اللهوت الديني، لم تعد الحقيقة معطى سابقاً، وإنما يصل إليها العقل الإنساني عن طريق اتباع قواعد المنهج العلمي، لكن الوضعيّة بخلاف التجريبية، لا تنطلق في دراسة الظواهر الاجتماعية من واقعها الحسي التجريبي، وإنما تنطلق من افتراضات نظرية سابقة حول هذه الظواهر وبالتالي، من أجل الانخراط في الملاحظة الميدانية للظواهر يحتاج عقلنا إلى بعض الافتراضات النظرية، إذً، من خلال التفكير في الظواهر، إذا لم نعلقها بمبدأ ما، فإنه سيكون من المستحيل أن نستخلص منها شيئاً ما، فالحقائق لن تمر أمام عيننا، هذه ضرورة يفسّرها كل علم معين بطريقته الخاصة، وبالتالي، فإن نظرية المعرفة عند أوغست كونت توفق طوعية تماماً

(1) Juliette Grange, Lire Auguste Comte aujourd’hui, Entre Science et société , Bulletin de la Sabix, 30 | 2002, 11-20.

(2) Ibid.



المعرفة السوسيولوجية، فما طبيعة الظواهر التي تدرسها السوسيولوجيا؟ فما هو ما تداول بين الباحثين في فلسفة العلوم، أن الموضوع object ترتيب عليه العديد من الاستبعادات المنهجية، هنا، الموضوع موجود في العالم الاجتماعي، بشكل خارجي مستقل عن وعي الذات الإنسانية، حده إميل دوركايم في النظر إليه كأشياء خارجية كما ننظر إلى الظواهر الطبيعية، قائلاً: « علينا أن نهتم بالظواهر الاجتماعية في حد ذاتها، ومنفصلة عن وعي الأفراد الذين يقومون بتمثيلها. علينا أن ندرسها من الخارج كأشياء خارجية، وهي الصفة التي تقدم بها إلينا»^(٣).

لكن أهم خاصية تميز بها الظواهر الاجتماعية تمثل في طبيعة القهر والجبر الاجتماعي، بمعنى يخضع الأفراد بصفة قهرية لها وبدون وعي منهم، ما يقابل صفة الحتمية التي تميز بها الظواهر الطبيعية، يخضع الأفراد لسلطانها، فتكرر الممارسات الاجتماعية مشكلة محتويات الظواهر الاجتماعية، وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نتخذها موضوعاً للتنصي المعرفي في السوسيولوجيا، لذا اعتبر الموضوع الرئيس في هذا البراديفم بمختلف فروعه واتجاهاته النظرية: المجتمع/ البنية الاجتماعية/النسق الاجتماعي/الطبقة الاجتماعية، وبناءً على طبيعة ماهية الموضوع، يصنف الباحثون هذا البراديفم بالاتجاه الكولياني: holism في

(٣) إميل دوركايم، قواعد المنهج الوسوسيولوجي ترجمة: محمد سبعيني. (الجزائر: دار القصبة للنشر ٢٠٠٨)، ص. ٥٥.

السياق نفسه قد يختار النموذج بعض الوقائع ويعتبرها جوهيرية ويستبعد وقائع أخرى^(٤). وهذه الحقيقة نجدها مبنوّة في فلسفة العلم الطبيعي، وقد أخذت بها المعرفة السوسيولوجية، وهي القوام الرئيس للمنهج العلمي. وتتجلى هذه الحقيقة في قواعد المنهج التي وضعها إميل دوركايم، عندما دعى إلى دراسة الظواهر الاجتماعية، كما تدرس الظواهر الطبيعية، «علم الاجتماع، كعلم الطبيعة، فرع من فروع المعرفة التي غايتها أن تجمع بين الجانب النظري والتجريبي في وقت واحد»^(٥).

بناء على مفهوم الحقيقة السوسيولوجية، تصبح مهمة المعرفة السوسيولوجية صياغة القوانين العلمية التي تحكم سير الظواهر الاجتماعية والمجتمعات الإنسانية، ويوصلنا المنهج الوضعي إلى الحقيقة التي توجد في العالم الاجتماعي، تلك الحقيقة العلمية، التي يمكن أن نصل إليها باستخدام العقل الإنساني، وذركتها بحواسنا، وتكون منفصلة عن ذواتنا، وتسكن الحقيقة السوسيولوجية شبكة العلاقات والتفاعلات الاجتماعية التي تنشأ بين الأفراد والجماعات.

تُؤسس الحقيقة العلمية في البراديفم الوضعي لتصور أنطولوجي لموضوع البحث في

(٤) بيار أنصار، العلوم الاجتماعية المعاصرة، ترجمة: نخلة فريفير ط(أ) المغرب: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥، ص. ١٦.

(٥) كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة عبد الحميد صبرة، (مصر: دار المعارف، ١٩٥٩)، ص. ٤٩.

الماركسي بمنهجه المادي الجدلية، يرى أن المعرفة العلمية (حسية و مباشرة) تعقبها النظرية (تنظيم المعارف، معرفة ملموسة/ ملموس مفكري فيه) كما يقول ماركس، والتي توجه بدورها الممارسة تغذى البراكسيس[...]. وعليه يشكل السعي بين النظرية والممارسة أحد أسس المادية الجدلية^(٣). والتيار الإمبريالي، الذي قادته مدرسة شيكاغو. رغم الاختلاف الظاهري بين هذه التيارات النظرية والمنهجية، فإنها تنهل من قواعد وأسس البراديفم الوضعي، وتبني عليها مفاهيمها ومناهجها في مقاربة الظواهر الاجتماعية، حيث تعامل هذه التيارات النظرية مع العالم الاجتماعي كمعطى سابق، ومستقل عن وعي الباحث، أو بتعبير إيمانويل كانط نوعاً من المعرفة القلبية.

هنا، نسجل ملاحظة أخرى في غاية الأهمية: أسلوبية الأنطولوجي للإبستيمولوجي في التأسيس للمعرفة السوسيولوجية من منظور البراديفم الوضعي. فيفترض هذا البراديفم وجود كائن سامي يسامي المجتمع أو ما يماثله، يتعالى على كينونة الأفراد، بحيث يخضع الأفراد لسلطته، وهو شبيه بالإله في الفكر اللاهوتي. لذا تُنتج المعرفة السوسيولوجية عبر فهم هذا الكلي الاجتماعي. ويفترض البراديفم الوضعي أن الظواهر محصلة تفاعل الأفراد والجماعات والطبقات مع المجتمع، وهو عبارة عن تفاعل

المعرفة السوسيولوجية، حيث يعتبر الفرد/ الفاعل الاجتماعي متغيراً تابعاً للمجتمع، وأن سلوكه لا ينبع من خياراته الذاتية، وإنما من قهرية الاجتماعي الكلي. وعرفت الظاهرة الاجتماعية على أنها محصلة تفاعلات الأفراد مع المجتمع، وليس محصلة الأفعال الفردية. فالمجتمع كينونة متعلقة على ذوات الأفراد. نجد أن التيار البنوي أخذ بهذا البعد إلى مده الأقصى، عندما انتصر للبنية الاجتماعية ماحيا كل أثر للفرد في الوجود الاجتماعي.

تفرع البراديفم الوضعي إلى تيارات ونظريات عديدة في المعرفة السوسيولوجية، نذكر منها: التيار الوظيفي الذي قاده بارسنر، الذي لم ينظر إلى الفعل الاجتماعي كتصنيف كما نظر إليه ماكس فيبر ولا كعمليات متعاقبة من منظور باريتو، ولكن كبنية اجتماعية مستقلة تماماً، بنفس المبنى الذي أعطاه دوركايم ومفهومه البنية في تقسيمه للمجتمعات الميكانيكية والمجتمعات العضوية^(٤). وتيار البنوية الجينية الذي قاده بيار بورديو. فأثناء مراجعته نموذج دوركاهايم، لم يفشل بورديو في تذكر أن رأس المال الاجتماعي لا ينشأ عن تأثير الذات، بل هو نتاج منطق علائق يربط الأفراد المتناثرين في الفضاء الاجتماعي. حيث الحفاظ على الروابط بشكل مستقل عن إرادتهم، حتى لو كانوا يتمثلون هذه الروابط ناشئة عنهم^(٥). والتيار

(1) M.Boutefnouchte, p180.

(2) Lahouari Addi, sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu Le paradigme anthropologique kabyle et ses conséquences théoriques, La Découverte, 2002, p137.



ويترتب على هذا المبدأ المبدأ الثاني ممثلاً في التفسير السببي أو العلني للظواهر الاجتماعية، فالتفسير السببي للظواهر من خلال إلهاق الظواهر بعضها ببعض. والسعى إلى صياغة قوانين تطور المجتمعات أو الأنساق الاجتماعية. «فالمجتمع آلة، الإنسان آلة، يجب لذلك أن يدرس بواسطة الأدوات التي أوضحتها علم الفيزياء، وبشكل أدق علم الميكانيك، والخواص التي سلط عليها الضوء علم السكون. وعلم الحركة علم الديناميكي باعتبارها تستخدم أيضًا في المجتمع، إن قانون جاذبية اجتماعية مشابهة للجاذبية الفيزيائية»^(١).

ترتبط الموضوعية العلمية في المعرفة السوسيولوجية في البراديفم الوضعي بطبيعة المنهج العلمي المستخدم في دراسة الظواهر الاجتماعية، والذي استعيرت خطاوه الإجرائية من منهج العلوم الطبيعية، القائم على فكرة القطيعة الجذرية بين الباحث الملاحظ وموضوعه، على هذا الأساس، على الباحث في علم الاجتماع أن يفصل بين ذاتيته وموضوعه، «إذا العلوم الاجتماعية والانسانية علوم بالفعل، فإن عليها أن توفر لنفسها هذه الثنائية، وما لها إلا أن تنقلها فقط لتضعها داخل الانسان نفسه: فتم الانقطاع عنده بين الانسان الذي يراقب والإنسان أو البشر المراقبين»^(٢).

للجزء مع الكل، مع أسبقيبة واضحة للكل على الجزء، طبعاً مع إضافة مسلمة تاريخية خفية، ترى أن المجتمعات الإنسانية سائرة في طريقها للت Sanchez مثل المجتمع الصناعي الغربي، وهي قراءة تاريخية خطية لتطور المجتمعات الإنسانية، وتعادل المرحلة الثالثة الوضعية من مراحل تطور العقل التي حدثنا عنها أجسست كونت.

بناء على الرؤية الأنطولوجية للظواهر الاجتماعية في البراديفم الوضعي، يتأسس المنهج العلمي الذي نوظفه في دراستها، حيث يرى أصحاب هذا البراديفم أن منهج العلم الطبيعي هو المنهج الأصوب لدراسة الموضوعات في المعرفة السوسيولوجية، يقوم هذا المنهج على النزعة الاستقرائية، القائمة على فكرة أن العلم يبدأ من ملاحظات ميدانية جزئية، وينتقل منها إلى تعميمات كلية(القوانين والنظريات)، لذلك الباحث في علم الاجتماع مطالب بجمع أكبر قدر من الملاحظات حول ظاهرة ما، ثم صياغة فرضيات علمية، إذا تكررت تصبح قانوناً اجتماعياً.

تقوم النزعة الاستقرائية على مبدأ السببية، بمعنى ببساط كل سبب يؤدي إلى نتيجة، يكتشف العقل الإنساني الأسباب التي تطبع خلف الظواهر الاجتماعية، طبعاً عبر عن هذا المبدأ في البحوث الكمية في المعرفة السوسيولوجية بمفهوم المتغيرات، حيث يسعى الباحثون للكشف عن العلاقة بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعية،

(١) جيفاني باسينو، نقد المعرفة في علم الاجتماع، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، ط(لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)، ص٤.

(٢) كلود ليفي شتراوس، مقالات في الأننسنة، ترجمة: حسين قيسى، ط(لبنان: دار التنبير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨)، ص١٢٣.

حاولت أن تتجاوز الأخطاء التي وقع فيها المنهجي الوضعي.

رابعاً: سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية من منظور البراديفم التأويلي:

اتخذ البراديفم التأويلي من الفلسفة الكانتية الجديدة إطاره الفلسفى المرجعى. تلك الفلسفة التي عملت على إحياء الميراث الفلسفى الكانتي في مجال المعرفة في العلوم الاجتماعية. يعتبر ريكرت، وفلهالم ديلتاي، من أبرز ممثليها، الذين دعوا إلى الفصل بين طبيعة المعرفة في العلوم الطبيعية والمعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية. ووسموا هذه العلوم بعلوم الروح أو العلوم التاريخية، حيث تنفصل هذه العلوم على منهج مخصوص يقوم على تأويل سلوكيات وأفعال الأفراد. « رغم نقاط الاختلاف المختلفة هذه، فإن مجموع الشامل للطراائق المتباينة في علوم الروح مختلف، من حيث منطلقاته، عن نظيره الذي في علوم الطبيعة»^(٢).

قدم أصحاب هذا البراديفم مبررات إبستيمولوجية قوية لقضية الفصل بين العلوم الطبيعية والعلوم التاريخية. فأبرز اختلاف بين هذه العلوم؛ يتمثل في طبيعة المنهج المستخدم في المعرفة. فتقوم

(٢) فلهلم ديلتاي، إقامة العالم التاريخي في علوم الروح، ترجمة: ف. تحة انقزو، ط١ (تونس: المركز الوطني للترجمة، ٢٠١٥)، ص. ١١.

وهنا، ضرورة استبعاد الأيديولوجيا والتحيزات الثقافية عند دراسة الظواهر الاجتماعية.

في الأخير، كان لهذا البراديفم المعرفي ومنهجه الوضعي السيادة على مستوى المؤسسات الجامعية والمراكمز البحثية. نظراً لتماشيه مع أيدلوجيا النظم السياسية في رؤيتها لوظيفة العلم في المجتمعات الصناعية، حيث ترى أن وظيفة العلم تمثل في حل المشكلات الاجتماعية. فسادت النظرية الماركسية في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية، وسادت النظرية الوظيفية في الدولة الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

تعرض البراديفم الوضعي لانتقادات حادة من طرف العديد من الباحثين والمفكرين. إلا أن أقوى نقد صوب نحوه يتمثل في اتهامه إدخال المعرفة السوسيولوجية في أزمة إبستيمولوجية حادة، بسبب رؤيته المادية للظواهر الاجتماعية. « فعلم الاجتماع يتناول موضوعاً واقعياً قابلاً للملاحظة، ويعتمد على البحث الإمبريقي، وعرف محاولات كثيرة لصياغة نظريات والتوصل إلى تعميمات تفسر تلك الظواهر وتحيط بها. ولكن البشر ليسوا كال الموضوعات المادية الموجودة في الطبيعة، فدراسة سلوكنا البشري تختلف بالضرورة اختلافاً قد يكون كلياً في بعض النواحي عن دراسة الظواهر الطبيعية»^(٣). وهو ما دفع بالعديد من الباحثين إلى طرح بدائل منهجية.

(٣) أنتوني جيدنر، مقدمة نقدية في علم الاجتماع، ترجمة: أحمد زايد وأخرون، ط٢ (القاهرة، مطبوعات مركز البحث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠٦).



تم عملية بناء الموضوع من قبل الباحث، ولا يعتبر معطى جاهزاً في العالم الاجتماعي. تتعلق رؤية الموضوع من زاوية أسطولوجية في البراديفم التأويلي، بمفهوم الحقيقة العلمية، وهنا، تنسم الحقيقة العلمية في المستوى الأول بالبنائية، «تقدّم البنائية الخطوات العلمية كنشاط منظم في شبكات اجتماعية تميّز بلا تجانس الفاعلين الاجتماعيين، وتعبر عن رابط قوي مع المجتمع المحيط بها»^(٣)، والقصد من هذا الكلام، أن الحقيقة يقوم ببنائها الباحث في المعرفة السوسنولوجية، وليس معطى جاهزاً، والمستوى الثاني: نسبة الحقيقة، بمعنى لا توجد حقيقة علمية أزليّة، وإنما تتشكل الحقيقة «بحسب اللغة والسياق التاريخي والاجتماعي»، المعرفة ليست معطى بل هي عبارة عن بناء، الحقيقة العلمية من منظور بنائي لا وجود لها، بل محض وهم، الحقيقة لا تجذب اهتمام الباحث البنائي، ما يهمه قواعد الاكتشاف والبحث، لا ينبغي الخلط بين هذه القاعدة وما يتم تطبيقه في البنائية الاجتماعية للحقيقة الاجتماعية، نحن نعلم، الفاعلون الاجتماعيون يُشيدون الواقع الذي يعيشونه»^(٤).

هذه العلوم على منهج يخالف المنهج العلمي في العلوم الطبيعية، وتدفع عن تطبيق معاير خاصة بالعلوم الاجتماعية - التاريفية، وليس شرطاً أن تلتزم بدقة العلوم الطبيعية، حتى تصنف ضمن العلوم، وإنما هناك اختلاف بين نماذج العلوم، وتختلف جذرياً عن العلوم الفيزيائية^(٥)، وهذا، بخلاف البراديفم الوضعي الذي دعى أصحابه إلى الأخذ بوحدة المنهج بين العلوم الطبيعية والاجتماعية.

هنا، نسجل ملاحظة هامة: أسبقية الإبستيمولوجي على الأنطولوجيا في بناء المعرفة السوسنولوجية، بناء على فرضية خفية ترى أن الإنسان مركز الكون، وبالتالي، الذات العارفة هي مركز المعرفة، والموضوع يسجح في فلكها، لهذا الموضوع في المعرفة السوسنولوجية من منظور البراديفم التأويلي، لديه صلة بعالم القيم الثقافية وعالم المعاني والرمز، «بناء الموضوع في العلوم الاجتماعية يتم بناءً على علاقته بالقيم والثقافة، علاقة إبستيمولوجية مع الثقافة، تدرس العلوم الاجتماعية من زاوية دلالتها الثقافية، علاقة معرفية بالقيم، مفهوم الثقافة يحدد طبيعة القيم السائدة في الظواهر الثقافية الموجودة»^(٦)، وعلىه،

(3) Marc Jacquemain, Bruno Frere, Epistemologie de la sociologie, paradigmes pour 21 siecle, Edetion de boeck universite, Bruxelles, 2008, p111.

(4) Alex Mucchielli, Le développement des méthodes qualitatives et l'approche constructivistes phénomènes humains , RECHERCHES QUALITATIVES-Hors-Série - Numéro 1, p11
Actes du colloque RECHERCHE QUALITATIVE ET PRODUCTION DE SAVOIRS, UQAM, 12 mai 2004

(1) Julien Farges, LE RÔLE DU CONCEPT D'ÂME DANS LA FONDATION DES SCIENCES DE L'ESPRIT Entre phénoménologie, néokantisme et philosophie de la vie, Archives de Philosophie ,2014/4 Tome 77, p633

(2) Frédéric Gonthier, RELATIVISME ET VÉRITÉ SCIENTIFIQUES CHEZ MAX WEBER,L'Année sociologique ,2006/1Vol. 56, p17.

المعرفة السوسيولوجية بالفاعل الاجتماعي، وهو ما نلاحظه فيما بعد عند العديد من التيارات الفرعية والنظرية لهذا البراديفم كالفردانية المنهجية، والتفاعلية الرمزية، والإثنوميثولوجيا.

إذا جئنا إلى طبيعة المنهج، الواجب اتباع خطواته في المعرفة السوسيولوجية، نجد أنه يتمثل في المنهج التأويلي، حيث يقوم هذا المنهج على تأويل سلوكيات الفاعلين الاجتماعيين، وفهم المعاني والرموز التي يضفونها على أفعالهم في العالم الاجتماعي، ويختلف هذا المنهج عن منهج العلم الطبيعي القائم على الملاحظة والتجريب، بل لديه خطواته الاجرائية وأدواته التطبيقية المخصصة، «فإن تفسيرات العلم الاجتماعي للأفعال الاجتماعية تستغل من خلال إظهار معقولية هذه الأفعال وفاعليتها وعقلانيتها في ضوء معتقدات الفاعل ورغباته»^(٣).

إذا كان التفسير الوضعي يطمح إلى معرفة الأسباب والعلل التي تحكم سير الظواهر الاجتماعية، ومن ثم صياغة القوانيين والنظريات، فإن التفسير التأويلي يطمح إلى فهم الظواهر والاجتماعية عبر فهم سلوكيات الأفراد ومقاصد أفعالهم، فتطمح جميع أنواع التفسير إلى الوصول إلى الوضوح، الوضوح يمكن أن يكون وضوح

(٣) حسن احيج.التفسير القصدي للسلوك الاجتماعي وشروط صدقته، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، العدد ٢٩٧٩، صيف ٢٠١٩، ص.٧٦.

يتربى على هذا المنظور للحقيقة العلمية، طبيعة خصوصية الموضوع، فما هو الموضوع الذي تدرسه المعرفة من منظور البراديفم التأويلي؟ ترى السوسيولوجيا أن الفرد الاجتماعي أو كما وسمه فيما بعد المفكرون وعلماء الاجتماع بالفاعل الاجتماعي/ الذات الاجتماعية/العون الاجتماعي، هو وحدة التحليل السوسيولوجي، على اعتبار أن الظواهر الاجتماعية هي محصلة الأفعال الفردية، «فالمنهجية الفردانية في العلوم الاجتماعية تقر بأن الظواهر الاجتماعية من خلال دراسة الفاعل الفردي، والتتركيز على التفاعلات والفعل، وفهم وتأويل الاعتقادات والقيم والاتجاهات»^(٤).

يعتبر ماكس فيبر الأب الروحي لهذا البراديفم، فقد عرف علم الاجتماع، بأنه العلم الذي يهتم بدراسة الفعل الاجتماعي، «علم يهدف إلى فهم الفعل الاجتماعي بطريقة شارحة ويفسر بذلك أسبابه في تتبعه وتأثيراته. الفعل هو هنا سلوك إنساني (سواء كان فعلًا خارجيًا أو داخليًا، تخلّيًّا أو قبولاً)، وبالقدر الذي يربط به القائم بالفعل أو القائمون به معنى ذاتيًّا. ذلك الفعل الذي يتبع في معناه المقصود من قبل فاعل أو فاعليه سلوك الأفراد الآخرين ويتجه في تتبعه حسب ذلك»^(٥). طبعًا، يرتبط الموضوع في

(٤) Naisat Francisco s. Max Weber et l'individualisme méthodologique. In: Raison présente, n°116, 4e trimestre 1995, p99

(٥) ماكس فيبر، مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ترجمة: صلاح هوال، طا (مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١)، ص.٢٩.



نجد أن التيار الاثنيدولجي الذي تزعمه أفرد شوتز يرى أن أي حقيقة اجتماعية، تحمل معنى حقيقياً أو تجريدياً. ثم يقوم بعد ذلك باستنتاج تفسيرات معينة (تجريدية) تحدد «موضوعات الفكر» لدى الأفراد بالحقائق الأكثر صلة. وبالتالي، تسمح لنا بإدراك الأساسية، ومن ناحية أخرى، تميز «الأشياء الفكرية» للعالم عن تلك التي يمتلكها الأفراد الآخرون لأنها تخضع لقواعد علمية لا تسود لدى الآخرين^(٣). وهنا، يتلقي فيبر مع شوتز في البحث عن المعنى الذي يضفيه الفاعل على سلوكياته في الحياة اليومية. وفي نفس الاتجاه تقريباً، نجد ما أشارت إليه التفاعلية الرمزية عن: «أشكال التواصل والتتمثلات التي تدخل في إطار العلاقات ما بين الأفراد. من هذه الزاوية لا يعتبر المجتمع ولا المؤسسات والعلاقات الاجتماعية معطيات، أو ضغوطات موجودة سلفاً، بل هي أمور يُعاد بناؤها، أو مناقشتها وتأويلها من ضمن التفاعل والتبادل اليومي»^(٤).

ووجهت انتقادات حادة للمنهج من منظور البراديغم التأويلي. يأتي في مقدمتها عدم قدرة الباحثين على الفكاك من أحباب التحيزات الذاتية عند دراسة الظاهرة الاجتماعية. وعليه، طرح سؤال عن موضوعية

الفهم، سيكون الفهم هو الغاية التي تسعى إليها البحوث السوسيولوجية. ويعني التفسير السببي لصحيح لفعل معين: «فالمسار الخارجي والدافع منطابقان وفي الوقت ذاته يمكن التعرف على معنى كل منها في سياقه بصورة مفهومية. ويعني التفسير السببي الصحيح لفعل نمطي (النمط فعل مفهوم): أن يبدو مجرى الأفعال الذي يفترض أنه نمطي منطابق المعنى وكذلك يكون ممكناً (بأي درجة) إثبات أنه منطابق سببياً أيضاً»^(٥).

تجلت امتدادات البراديغم التأويلي في العديد من التيارات النظرية في المعرفة السوسيولوجية في الستينات والسبعينات من القرن الماضي. لعل أبرزها تيار المنهجية الفردانية، لصاحبها ريمون بدون، الذي يفترض في الأول: «أن أي ظاهرة اجتماعية ناتجة عن مزيج من الأفعال أو المعتقدات أو المواقف الفردية (P1: مسلمة الفردية). ويترتب على ذلك أن اللحظة الأساسية لـ تحليل اجتماعي تكون من «فهم» سبب الأفعال أو المعتقدات أو المواقف الفردية المسئولة عن الظاهرة التي يسعى المرء إلى تفسيرها. بحسب الفرضية الثانية، «لفهم» أفعال ومعتقدات ومواقف الفاعل الفردي، هي إعادة بناء معانيها له، والتي من حيث المبدأ على الأقل - ممكناً دائمًا (P2: مسلمة الفهم)»^(٦).

(3) Guy HUARD, Alfred SCHÜTZ :LE CHERCHEUR ET LE QUOTIDIEN, Publié dans Aspects sociologiques, Vol. 5, no 1, novembre 1996, pp. 30-36.

(4) دورتيه، ج. ف. . معجم العلوم الإنسانية ترجمة: جورج كتورة، ط. ٢(بيروت- لبنان: كلية ومحمد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠١٢).

(5) فيبر، ص. ٣٨.

(2) Raymond Boudon, THÉORIE DU CHOIX RATIONNEL OU INDIVIDUALISME MÉTHODOLOGIQUE ? Revue du MAUSS », 2004/2,no24, p281.

العديد من الباحثين والمفكرين، فلكل باحث أو مجموعة بحثية مبرراتها في التأسيس لهذا البديل، انطلقت بعض الطرحوتات البديلة من النقد المعرفي للمنهج الوضعي، باعتباره منهجاً أيديولوجياً أكثر منهجاً علمياً، ونفس الأمر بالنسبة للمنهج التأويلي الذي اعتبر تحريفاً للمنهج في علم الاجتماع، اتفقت هذه البديل على النقد لكنها لم تتفق على افتراضات منهجة بديلة، فطرحت فكرة التكامل بين الوضعي والتأويلي، والتكامل بين الكمي والكيفي في تحليل الظواهر الاجتماعية، وطرح بعض الباحثين فكرة منهج يتماشى مع السياق الاجتماعي والتاريخي المغاير للسياسات التي ظهرت فيها البراديم المنهجي المهممين، في حين، اكتفى بعض الباحثين بالنقد، الذي يرقى في بعض ممارساته الى مرتبة منهج علمي له خطواته الإجرائية.

ما يُحسب لهذه البديلة المنهجية إعادتها الحيوية لسؤال المنهج في المعرفة السosiولوجية المعاصرة. تمشياً مع التحولات التي عرفتها فلسفة العلوم المعاصرة، والانتقادات التي طالت المنهج في العلوم الطبيعية، وخاصة مع فكرة فوضوية المنهج التي طرحتها فيرباند، والمنهج المركب الذي طوره إدغار موران، لذلك نستهل هذا السجال حول البديل من المنهج النقيدي، الذي مثلته التيارات النسوية والماركسية المحدثة، ومدرسة فرانكفورت، حيث كان ثمة رفض للافتراضات الوضعية.

النتائج التي يخلص إليها الباحثون، فتنهם
البحوث الكيفية بأنها بحوث أيديولوجية
تنطلق من رؤى ثقافية ومعرفية مسبقة.
وليس لها علاقة بالعلم أو المنهج العلمي.
لذا لا يُعتقد بنتائجها وخلاصاتها.

كذلك، طرحت بالنسبة للبحوث الكيفية التي تبني البارديغم التأويلي، مشكلة التعلم العلمي، حيث عادة ما يختار الباحثون عينات صغيرة الحجم، وبمواصفات منهجية تكون في الغالب الأعم ذاتية، «فإن البيانات الكيفية، والتي منها ما نراه في تقارير المقابلات مع جماعات المناقشة المركزة، كثيرةً ما يُشار إليها بأنها بيانات مزعومة أو مؤلفة مما يعني أنها أقل علمية، ومن ثم فهي أقل دقة وبالتالي أقل أهمية»⁽¹⁾.

خامسًا:

سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية المعاصرة: نحو صياغات منهجية بديلة:

بناء على الانتقادات التي تعرض لها كل من البرايغم الوضعي والتأويلي في المعرفة السوسيولوجية. طرحت محاولات منهجية بديلة، ولكن واضحين من البداية، أن هذه الاجتهادات على قيمتها العلمية المنهجية إلا أنها لم ترق إلى مرتبة برايدغم منهجي بديل، وإنما بقيت محاولات منتشرة ومشتقة، أنتجهما

(٤) شارلين هس-ببير، باتريشيا ليفي، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، ترجمة: هناء الجوهري، طا (مصر: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣)، ص ٥٧.

التأويلي، فانتقد ادورنو البحث الكيفي، قائلاً: «أي لو جرى الاعتماد على الطريقة الكيفية، فإن ذلك سيؤمن دون شك ويمكن في كل الأحوال التعرف على أكثر الأمور فعالية، ولكن الباحث سيجد نفسه هنا وليس له ما يحميه، إزاء حائط مسدود. إذاً هل يمكن الخروج من وجهات النظر المتعددة المميزة وحتى العينية بتعظيم ما»^(٤).

نرى أن المنهج النقدي لا يشكل براديغماً منهجيًّا مخصوصًا، وإنما بقي يتغاضى عن أخطاء وتناقضات القواعد المؤسسة للبراديغم الوضعي -التأويلي. ولم يتطور أدوات وتقنيات على مستوى الممارسات البحثية، وبالتالي، لا يمكننا الحديث عن براديغم نقدي، رغم ادعاء بعض باحثيه المتهمسين. المنهج النقدي لم يضفي إلى تكوين معارف جديدة في العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع، وإنما بقي في لحظة النقد ولم يتجاوزها. يُعلق كارل بوير على أعمال ادورنو قائلاً: «إنني لا أستطيع الاتفاق ولا الاختلاف مع القطاع الأكبر من فلسفته. وعلى الرغم من بذل الجهد لفهم فلسفته، لمبدو لي بأسرها، أو في معظمها، مجرد حشد للألفاظ، لا شيء لديه البتة ليقوله، وهذا اللاثيء يقوله بلغة هيجلية»^(٥).

في السياق نفسه، طرح بدبل منهجي

(٤) المرجع السابق، ص.٦١.
 (٥) كارل بوير، أسطورة الاطار، في الدفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة: يعني طريف الخولي، العدد: ٩٢، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب)، ص.٦.

«خاصة الفكرة التي تزعم وجود مراقب متحرر من أحكام القيمة، وبعيد عن التحيز ومعها تلك الزيادة الملحوظة المتساوية في ما يمكن أن ندعوه بالنقد الملائم أخلاقياً، ذلك النقد الذي سبق له أن انحرف في بعض الأحيان صوب الأخلاقية الممحضة»^(٦). ويقوم المنهج النقدي على رؤية جدلية لمفهوم المجتمع، «فالمجتمع لا يمكن مع ذلك أن يكون مفهوماً يتعدي الأفراد، فلا هو بالفعل مجرد جموع أو حصيلة الأفراد الذين يكونون المجتمع، ولا هو شيء قائم مستقل إزاء الأفراد، بل شيء يتوسط هاتين الحظتين، فهو لا يتحقق من خلال الأفراد ومع ذلك فلا هو حصيلتهم»^(٧). ومنطوق هذا القول، أن هناك علاقة جدلية بين الفرد والمجتمع، يتحدد في ضوئها منهج الدراسة في المعرفة السosiولوجية.

بذل الباحثون في مدرسة فرانكفورت جهداً من أجل عدم الفصل آلياً بين منهج علم الاجتماع وموضوع هذا العلم. «بل إنها تحاول جاهدة، وإن تفاوت درجات نجاحها في ذلك، أن تنساب مسبقاً بين المنهج وبين المواقب التي ستكون مدار البحث»^(٨). إلا أن رفض الفصل بين المنهج والموضوع في السosiولوجيا، لا يعني تماهي المنهج النقدي مع المنهج

(٦) ألان هاو، النظرية النقدية، مدرسة فرانكفورت، ترجمة: ثائر ديب، طا (مصر: المركز القومي للترجمة)، ٢٠٠٤، ص.٢٣.

(٧) تيدور فون أدنريو، محاضرات في علم الاجتماع، ترجمة: جورج كتورة، (بيروت: مركز الانماء القومي)، دس، ص.٣٦.
 (٨) المرجع السابق، ص.٦.

كلي الظاهرة الاجتماعية^(٢). كذلك، نعثر على محاولات منهجية أكثر إجرائية، ولم تفرق كثيراً في التفصيلات النظرية. كمحاولة النظرية التكيفية الجمع بين الأساليب الاستقرائية والاستدلالية في دراسة الظواهر الاجتماعية^(٣):

- ترتكز النظرية التكيفية على موقف معرفي لا هو وضعي ولا هو تأويلي.
- إنها تفيد كل من النزعتين الموضوعية والذاتية فيما يتعلق بافتراضاتها الأنطولوجية.
- تفترض النظرية التكيفية أن العالم الاجتماعي عالم معقد، ومتعدد الأوجه، ومتلاحم بصورة مكثفة.

ووجهت انتقادات حادة لفكرة التكامل بين الكمي والكيفي في المعرفة السوسنولوجية، على اعتبار أن لكل بحث أدواته ومناهجه وتقنياته، فلاب يمكننا من الناحية الإبستيمولوجية التوفيق بين العديد من الافتراضات المنهجية المتناقضة. لذلك فكرة التكامل بين الكيفي والكمي لا تؤدي إلى فهم عميق للظواهر الاجتماعية، فكيف يمكننا التوفيق بين الميكرو والماكرو في دراسة الظواهر الاجتماعية؟ وبتعبير أدق، كيف يمكننا الانتقال من دراسة وحدات صغرى إلى دراسة

(2) Jean -Yves Couser, *Crioseption des methodes et approfondissement d un regard, la scientificite de l'empirisme en sociologie, sous la direction de abdehalim Berretima, L Harmattan, 2019, p172.*

(3) ديرك لايك . قضايا التنظير في البحث الاجتماعي. ترجمة: عدلي السمرى. طا) مصر: المركز القومى للترجمة. ٢٠١٣... ص.٥٧٩.

آخر في المعرفة السوسنولوجية. يتمثل قوامه في التكامل بين البحث الكمي والكيفي في دراسة الظاهرة الاجتماعية، طبعاً، هذا الخيار يعكس إلى حد ما: فكرة التوفيق أيضاً بين المنهجية الفردانية والمنهجية الكليانة، معنى بسيط. أنت لا تدرس الظواهر الاجتماعية بالرجوع للفاعل الاجتماعي مع إقصاء المجتمع، والعكس، لا تدرس الظواهر الاجتماعية انطلاقاً من البنية الاجتماعية ونقصي الفاعل الاجتماعي، نجد أبرز من مثل هذه الخيار عالم الاجتماع أنتوني جيدنر، حيث حاول الجمع بين ثنائية الفرد والمجتمع في تحليل الظواهر الاجتماعية وتفسيرها، معتبراً أن مجال الفعل الإنساني محدود بحدود معينة، فالبisher يخلقون المجتمع، ولكنهم يفعلون ذلك باعتبارهم فاعلين مشروطين تاريخياً ولا يفعلونه في ظل ظروف من اختيارهم، ومع ذلك فهناك هامش غير ثابت من السلوك الذي يمكن أن يحل محل ك فعل قصدي، والسلوك الذي ينبغي أن ناموسياً ومنطقياً كمجموعة من الأحداث»^(٤). هنا، يأخذ المنهج في المعرفة السوسنولوجية طبيعة مزدوجة. أو كما وسمه غيدنر بمنهج التأويل المزدوج، عرف في المستوى الأول المنهج، سواء الكمي أو الكيفي، على أنه مجموعة من الإجراءات تساعدنا في فهم الممارسات في وضعيات معينة، وتشرح على مستوى

(4) أنتوني جيدنر قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع. ترجمة: محمد محي الدين. مصر: المركز القومى للترجمة. ٢٠١٣... ص.٥٧٩.



مصادرة كلمتهم باسم موضوعية علمية مزعومة تبحث دائمًا أن تكون قريبة من اهتماماتهم وتجاربهم الآتية»^(٢).

بناء على هذا، لا أسبقية للفاعل الاجتماعي كخيار في السوسيولوجيا البراغماتية، وكذلك نفس الشيء بالنسبة للبنية الاجتماعية، وإنما هناك مستويين متداخلين عند النظر إلى الظاهرة الاجتماعية. يقودنا المستوى الأول: الميكرو إلى المستوى الثاني: الماكرو. لنصل إلى فهم عميق لخيارات ومقاصد الفاعلين الاجتماعيين. «لا يعتبر الميكرو Macro يقع في تضاد مع الماكرو Micro وإنما يدخل ضمن مخطاطته. إنه وضعية ضمن وضعيات، فمستوى الماكرو يكمل مستوى الميكرو تحقيقاً موضوعية من خلال الممارسات. فيرون بوجود البيانات الاجتماعية والمؤسسات، لكننا لا يمكننا وصفها عبر الفاعلين الاجتماعيين»^(٣).

وهذا، عكس البديل المنهجي الذي يدعو أصحابه إلى التكامل بين البحث الكيفي والبحث الكمي. فهنا قضية تداخل على مستوى التحليل السوسيولوجي بين الكلي والجزئي للظواهر الاجتماعية، فسوسيولوجيا الاختيارات كما يحلو للبعض أن يدعوها. أرادت أن تتأي بنفسها

وحدات كبرى؟ وبالتالي، لم يرتفع هذه البدائل إلى بردايفم منهجيٍ متسبق المنطلقات المعرفية وواضح القواعد المنهجية.

وليس بعيداً عن هذا المنحى، تشكل تيار سوسيولوجي في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات تحت مسمى السوسيولوجيا البراغماتية في فرنسا، أتى هذا التيار كرد فعل معرفي على سوسيولوجيا الفردانية المنهجية بيار بورديو، وسوسيولوجيا الفردانية المنهجية عند ريمون بدون، حاولت السوسيولوجيا البراغماتية أن تتجاوز من الناحية المنهجية تلك ثنائية الشهيرة في المعرفة السوسيولوجية: الفردي والكلياني، الذاتي والموضوعي، الوضعي والتأويلي، لتأسيس تصورات منهجية بديلة، حيث ينصب تركيز الباحث على المشكلة والسؤال المتعلق بالبحث السوسيولوجي، بغض النظر عن أي اعتبارات نظرية أو منهجية مسبقة، ولذلك قد يلتجأ الباحث إلى مقاربات متنوعة سواء كانت ما بعد وضعية، أو بنائية، أو تحويلية، في البحث ذاته»^(٤). فقام علماء الاجتماع البراغمتيون بصياغة طرق جديدة لإجراء المسح الاجتماعي وجمع المعطيات الميدانية واستكشاف الميدان. «فالافق البرغماتي للسوسيولوجيا ومتطلبهما الأول هو الأخذ على محمل الجد أفعال ومسوغات الأشخاص العاديين وفي خلال ذلك تفادي

(٢) محمد ناشي، مدخل إلى علم الاجتماع البراغماتي، ترجمة: طواهري ميلود، طا(بيروت: دار الرواقد الثقافية-ناشرون، ٢٠١٤)، ص.٢٨.

(٣) Yannick Bartheet autre,SOCIOLOGIE PRAGMATIQUE : MODE D'EMPLOI,Politix,2013/3 N° 103,p 178.

(٤) باسم محمود، نحو علوم اجتماعية في السياق العربي: في الحاجة إلى النظرية المتقدمة، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، العدد ٢٧(خريف ٢٠١٨)، ص.٩٢.

على هذا، دعت الدراسات السوسيولوجية في مرحلة ما بعد الكولونيالية إلى تأسيس براديفم منهجي بديل لدراسة الظواهر الاجتماعية يُراعي السياقات الاجتماعية والتاريخية لهذه المجتمعات، «فلقد جعلتنا إيجابيتنا تجاه النظريات السوسيولوجية الغربية نتقن التعليم في هذا المجال، إلا أنها لم تعطنا الأدوات اللازمة لمعالجة قضايا واقعنا الذي يختلف في توكيه ويزيد تعقيداً على واقع المجتمعات الغربية»^(١).

وفق هذه الرؤية النقدية، طرحت فكرة التبعية في مجال المعرفة السوسيولوجية، حيث تُنتج المجتمعات الغربية البراديفمات المعرفية، بينما تبقى المجتمعات الثالثة في حالة تبعية معرفية تامة، وهي تبعة لها جذور بالمرحلة الكولونيالية وكذلك تتعلق بالمؤسسات الدولية في العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع، عليه، تصبح هذه النماذج المعرفية مسألة عامة^(٢). ومن هذا المنطلق، حاول بعض الباحثين صياغة بدائل منهجية، تتجاوز التحيزات الثقافية والحضارية للبراديفم الوضعي والتأويلي؛ لأن النظريات الاجتماعية

عن الجدل الشهير بين الفاعل الاجتماعي والبيئة الاجتماعية، إلا أننا نعتقد أنها في الأخير انحازت إلى خيار الفاعل الاجتماعي، ولا تعود أن تكون محاولتها إلا تطويراً منهجياً للفرادنية المنهجية، بدمجها للمستوى الكلي في الجزئي عند مقاربة الظواهر الاجتماعية، وعليه، أتّهم هذا التيار بتقييم موضوع علم الاجتماع، بتدخله مع موضوع علم الاقتصاد، وبالتالي، لم تتمكن الافتراضات المنهجية التي قدمتها السوسيولوجيا البراغماتية من صياغة براديفم منهجي، وبقيت محدودة التوسيع والانتشار بين الباحثين والأكاديميين، بل هناك من اتهم هذا التيار بأنه عمل على هدم حدود السوسيولوجيا.

في الأخير، ومن زاوية بعيدة عن الجغرافيا التي نبتت فيها السوسيولوجيا، طعن الباحثون الذين ينتمون إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية في العالم الثالث في البراديفم الوضعي/التأويلي في المعرفة السوسيولوجية من منظور السياق التاريخي والاجتماعي، منطلقين من فكرة نسبة هذا البراديفم، بحيث استُخدم في دراسة الظواهر الاجتماعية التي خبرتها المجتمعات الغربية، إذا قمنا بإخراجه من هذا السياق، تظهر لنا محدوديته، فحتى المؤسسات الأكademie الغربية في مرحلة زمنية ما ابتكرت الأنثربولوجيا بمناهجها للدراسة المجتمعات غير الغربية، بناءً

(١) علي الكنز المسألة النظرية والسياسية لعلم الاجتماع، في كتاب: نحو علم الاجتماع العربي، محمد عزت حجازي وأخرون، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط..ا، ص..١٩٨٩

(٢) Wiebke Keim, POUR UN MODÈLE CENTRE-PÉRIPHÉRIE DANS LES SCIENCES SOCIALES, Aspects problématiques des relations internationales en sciences sociale, Revue d'anthropologie des connaissances, 2010/3 Vol 4, n° 3.



على التحيزات الثقافية والحضارية، ومحاولة تأسيس براديفم متحيز ثقافياً وحضارياً، مما أوقعها في نفس الأخطاء المعرفية التي انتقدتها، حيث ما تزال هذه المحاولات الطريفة، تجذب إليها الباحثون المبتدئون والشباب المתחمّس، بينما ينفر منها الباحثون المتمرّسون؛ لأنهم يعتقدون أن البراديفم الوضعي والتأويلي، لا يكمن الخطأ في أسسه المنهجية وافتراضاته الإبستيمولوجية، وإنما في إشكالية الإتقان المنهجي لأدواته وتقنياته، وصعوبات أخرى تتعلق بالجوانب الذاتية للمبحوثين في مجتمعات العالم الثالث، الذين لا يتعاونون مع الباحثين، مما يؤثر سلبياً على نتائج الدراسات الميدانية، وبالتالي، لم تتمكن هذه المحاولة على جديتها من طرح براديفم بديل.

خاتمة

ضاعت المعرفة السوسيولوجية منذ نشأتها إلى براديفمات معرفية، وهي عبارة عن مجموعة من الافتراضات الإبستيمية والنظريات والقواعد المنهجية التي يتبعها الباحثون في دراسة الظواهر الاجتماعية، يتحدد في ضوئها المنهج الذي يمكننا من دراسة الظواهر الاجتماعية، ومدار النقاش إلى يومنا هذا يدور حول الثنائيات الشهيرتين: الوضعي والتأويلي، الموضوعي والذاتي، الميكرو والمacro، الفاعل والبنية، حيث تعبّر هذه الثنائيات التي تختلف المعرفة

المتولدة عنه هذا لا تجib عن إشكالات الواقع مجتمعات العالم الثالث، «فيحاول الكثيرون إقحامها في تفكيرهم مهما كان الثمن باهظاً أو أصبحت مجالاً واسعاً لاغتراب بحوثنا ومرتعًا للمتاهات اللغوية وخروجاً واضحًا خطيراً عن المساليات والاشكاليات العربية الأصيلة»^(٤)، وعلى هذا الأساس، طرح بعض الباحثين في العالم العربي بدائل منهجية، لعل أمنتها معرفياً محاولة عبد الله حموي تأسיס أنثربولوجيا عربية، «هم مشروعى هذا هو إنتاج البديل المعرفي من طرف الباحثين المنتسبين إلى المنطقة المغاربية والعربية، وعلى أساس تطلعات شعوبها، والأسئلة العريضة التي يطرحها الناس يومياً على أنفسهم مجتمعاتهم، وبطبيعة الحال، فإن نقد الخطابات الغربية من حيث هي خطابات همية وتحيز له دور حيوي»^(٥).

على وجاهة هذا النقد الذي وجه للبراديفم الوضعي والتأويلي في المعرفة السوسيولوجية، والكشف عن نسبة الافتراضات الإبستيمولوجية التي ينطلق منها، واستحالة تطبيق قواعده المنهجية على الظواهر الاجتماعية في مجتمعات العالم الثالث، إلا أن هذه المحاولة شابها القصور المنهجي والمعرفي، بسبب التركيز

(٤) عبد الوهاب بوحدية، لأنفهم فصول عن المجتمع والدين، ط(١) تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٩٢، ص.٨.

(٥) عبد الله حموي، المسافة والتحليل، في صياغة أنثربولوجيا عربية، ط(١) المغرب: دار توبقال للنشر، ٢٠١٩، ص.٨.

للباحثين. لذلك نعتقد أن سؤال المنهج سيبقى سؤالاً حاضراً يطرح على كل باحث يستغل في حقل السوسيولوجيا.

الباحثون في العالم العربي مطالبون بطرح سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية، وتكيفه بحسب السياق الاجتماعي والتاريخي للمجتمعات العربية. فالبراديفم المنهجي الوضعي الذي كانت له الحظوة، نظرًا لسهولة استيعاب قواعده المنهجية الكمية، في المقابل، استبعد البراديفم التأويلي، نظرًا لصعوبة قواعده المنهجية وتدخلها مع الفلسفة، والقائم على تأويل الفعل الاجتماعي، وفهم دوافع ومقاصد الفاعلين الاجتماعيين. لذا، يحتاج الباحث العربي أن ينفتح على كل المنهاج التي طورتها السوسيولوجيا المعاصرة، وأن يتبع عن النقد الأيديولوجي للمنهج في علم الاجتماع، كما يحاول البعض تأسيس مركبة عربية، نرى أنها لا تسهم في ترسیخ وتوطين المعرفة السوسيولوجية، وإنما تزيد من مأساتها على مستوى الخطاب الأكاديمي الجامعي.

وعي الباحثين بالبراديفمات المنهجية التي تشكلت في المعرفة السوسيولوجية، يجب أن لا يحجب عنهم تلك العلاقة الجدلية بين المنهج والنظرية في السوسيولوجيا. فنحن عندما تحدثنا عن البراديفم الوضعي أو التأويلي، يجب أن يكون لدينا وعي بمنطلقاته، وامتداداته، بحث يتجلى كل براديفم في نظريات عديدة.

السوسيولوجية عن تعدد زوايا النظر العقلي إلى العالم الاجتماعية، لذا علينا كباحثين في العالم العربي أن ننخرط في هذا النقاش للإثراء والإغناء، دون أن نصد عنها بحجة هذا التعدد المنهجي، فحتى العلوم الطبيعية التي تعتبر أكثر رسوحاً من الناحية المنهجية، لا تزال تعرف نقاشات حادة حول وضعياتها الإبستيمولوجية، أما من أراد أن ينخرط في نقد هذه المناهج، فإنه سيمر عبر تأزيم أسسها وقواعدها ومنطلقاتها بالممارسات الإمبريقية، فالتجريب والممارسة الميدانية، هي التي تحكم عن ما تبقى صالحًا من هذه المنهج في تحليل الظواهر الاجتماعية في المجتمعات الحديثة. كما تسهم هذه الممارسات البحثية في بلورة بدائل منهجية تثري المعرفة السوسيولوجية.

سؤال المنهج في المعرفة السوسيولوجية، سؤال يحمل على الدوام إجابات متعددة بحسب السياقات التاريخية والاجتماعية التي يطرح فيها، سؤال تحكم في استفهاميته البنية الإبستيمولوجية للمعرفة السوسيولوجية، كالسؤال عن أفضل الأدوات والتقنيات التي يمكن أن يعتمد عليها الباحثون في دراسة الظواهر الاجتماعية، وقد يكون سؤال المنهج من خارج حدود المعرفة السوسيولوجية، كالأسئلة الفلسفية النقدية حول موضوعية المعرفة السوسيولوجية، والعلاقة بين السوسيولوجيا والتحيزات الأيديولوجية والثقافية

بوب، كارل، عقم المذهب التاريخي، دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة: عبد الحميد صبرة، (مصر: دار المعارف، ١٩٥٩).

-بودجية، عبد الوهاب، لفهم فصول عن المجتمع والدين، طا) تونس: الدار التونسية للنشر، (١٩٩٥).

جيدنز، انتوني. قواعد جديدة للمنهج في
علم الاجتماع. ترجمة: محمد محي الدين.
(مصدر: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٣).

جيدنز، انتوني، مقدمة نقدية في علم الاجتماع، ترجمة: أحمد زايد وأخرون، ط٢(القاهرة، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، [..]).

حمودي. عبد الله، المسافة والتحليل، في
صياغة انثروبولوجيا عربية، طا) المغرب: ادار
توقان، للنشر، (٢٠١٩)

دورته، ج.ف. معجم العلوم الإنسانية
ترجمة: جورج كتورة، ط.٢(بيروت- لبنان:
كلمة ومجد المؤسسة الجامعية للدراسات
والنشر والتوزيع، ٢٠١٣).

دوكايم. اميل. قواعد المنهج
الوسسيولوجي ترجمة: محمد سبعيني. (الحادي: دار القصبة للنشر، ٢٠٠٨).

ديلتاي. فلهلم. إقامة العالم التاريخي في علوم الورج. ترجمة: فتحة انقوزو، طا) تونس:

تشترك في مجموعة من القواعد والافتراضات المنهجية، وفي كيفية تفسير الظواهر الاجتماعية، وهنا، هذا الاحتراز ضروري حتى لا يقع فريسة للنزعه الميثلوجية، التي تعلي من قيمة المنهج على حساب النظرية، حيث نلاحظ نزعة إمبريقية كمية أصبحت سائدة في الممارسات البحثية على مستوى الجامعات العربية، تحولت معها المعرفة السوسنولوجية إلى مجرد معادلات رياضية إحصائية باهتة، مفرغة من كل تحليل سوسنولوجي.

البيلوغيرا فيا:

أنصار، بيار. العلوم الاجتماعية المعاصرة
ترجمة: نخلة فريفر، طا) المغرب: المركز
الثقافي، العربي، ١٩٩٩).

باسينو. جيفاني، نقد المعرفة في علم الاجتماع، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، طا
لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨.

بوبر، كارل، أسطورة الإطار، في الدفاع
عن العلم والعقلانية، ترجمة: يمنى طريف
الخولي، العدد: ٩٢، (الكويت: المجلس الوطني
للثقافة والفنون، والآداب، ٢٠٠٣).

- الانسasse، ترجمة: حسين قببيسي، طا(لبنان: دار التدوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨).
- مهان. جاك. الخطابات علم الاجتماع، ترجمة: عياشي عنصر(الأردن: دار المسيرة، طا، ٢٠١٠).
- ناشي. محمد. مدخل إلى علم الاجتماع البراغماتي، ترجمة: طواهيري ميلود، طا(بيروت: دار الروافد الثقافية-ناشرون، ٢٠١٤).
- هنس-بير.شارلين، باتريشيا ليفي، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، ترجمة: هناء الجوهري، طا(مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢).
- احسن احجيج. التفسير القصدي للسلوك الاجتماعي وشروط صدقته، **مجلة عمران للعلوم الاجتماعية**، العدد ٢٩ (صيف ٢٠١٩).
- باسم محمود، نحو علوم اجتماعية في السياق العربي: في الحاجة الى النظرية المتجذرة، **مجلة عمران للعلوم الاجتماعية**، العدد ٢٦(خريف ٢٠١٨).
- فيبير، ماكس، مفاهيم اساسية في علم الاجتماع، ترجمة: صلاح هوال، طا (مصر: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢).
- كابان، فليب، جان فرنسوا دروتيه، علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، ترجمة: اياس حسن، طا(سوريا: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٤).
- كريبا، أيان، النظرية في علم الاجتماع، من بارسونز الى هابرماس، ترجمة: محمد حسين غلوم، العدد: ٤٤، (الكويت: المجلس الأعلى للفنون والثقافة والآداب، ١٩٩٩).
- الكنز، علي، المسألة النظرية والسياسية لعلم الاجتماع، في كتاب: نحو علم الاجتماع العربي، محمد عزت حجازي وآخرون، طا(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، طا، ١٩٨٩).
- كون، توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة: شوقي جلال، العدد: ٦٨، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢).

References:

- Gilles Willett,** Paradigme, théorie, modèle, schéma : qu'est-ce donc ?, *Communication et organisation* [En
- لiley. ديرك، قضايا التنظير في البحث الاجتماعي، ترجمة: عدلي السمرى، طا(مصر: المركز القومي للترجمة، ...).
- ليفى شترواس. كلود، مقالات في

Juliette Grange, Lire Auguste Comte aujourd’hui, Entre Science et société ,*Bulletin de la Sabix*, 20-11 ,2002 | 30.

Lahouari Addi, sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu Le paradigme anthropologique kabyle et ses conséquences théoriques, France ; La Découverte, 2002.

Julien Farges, LE RÔLE DU CONCEPT D'ÂME DANS LA FONDATION DES SCIENCES DE L'ESPRIT Entre phénoménologie, néokantisme et philosophie de la vie, Archives de Philosophie ,4/2014 Tome 77,

Jean-François Dortier, La sociologie; Editions Sciences Humaines, 2009, p34.

Frédéric Gonthier, RELATIVISME ET VÉRITÉ SCIENTIFIQUES CHEZ MAX WEBER, L'Année sociologique , 1/2006 Vol. 56.

Alex Mucchielli, Le développement des méthodes qualitatives et l'approche constructiviste des phénomènes humains , RECHERCHES QUALITATIVES– Hors-Série – Numéro 1, p11

Actes du colloque RECHERCHE QUALITATIVE ET PRODUCTION DE SAVOIRS, UQAM, 12 mai 2004.

ligne], 1996 | 10, mis en ligne le 26 mars 2012, consulté le 28 février 2020. URL

fetcu, Nicolae, Imre Lakatos, La méthodologie des programmes de recherche scientifique , SetThings (25 mars 2019), MultiMedia Publishing.

URL = <https://www.setthings.com/fr/imre-lakatos-la-methodologie-des-programmes-de-recherchescientifique>.

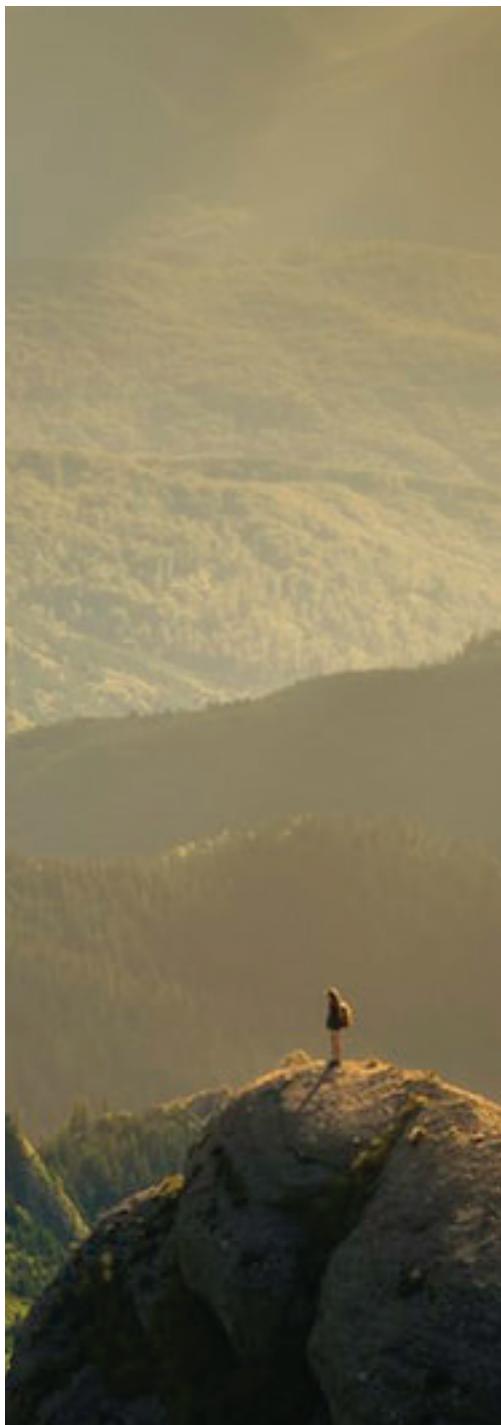
Alain Touren, LES ÉCOLES SOCIOLOGIQUES, Cahiers de recherche sociologique, no 14, printemps 1990.

Yao Assogba, La sociologie de Raymond Boudon. Essai de synthèse et applications de l'individualisme méthodologique, Québec : Les Presses de l'Université Laval- l'Harmattan, 1999.

Boudon Raymond ,Traité de sociologie, Paris, Presses Universitaires de France, 1992.

Moustfa Boutafnouchet, introduction a la sociologie, les fendement, O-N-U , alger, 1990.

Comte, *Cours de philosophie positive I. Leçons 1 à 45*, éd. M. Serres, F. Dagognet, A. Sinaceur, Paris : Hermann, 1998.



Naishtat Francisco s. Max Weber et l'individualisme méthodologique. In: Raison présente, n4 ,116^e trimestre 1995.

Raymond Boudon, THÉORIE DU CHOIX RATIONNEL OU INDIVIDUALISME MÉTHODOLOGIQUE ? Revue du MAUSS », 2/2004, no24.

Guy HUARD, Alfred SCHÜTZ :LE CHERCHEUR ET LE QUOTIDIEN, Publié dans Aspects sociologiques, Vol. 5, no 1, novembre 1996

Jean -Yves Couser, Criosement des methodes et approfondissement d un regard, la scientificite de empirisme en sociologie, sous la direction de abdehalim Berretima, L Harmattan ,2019.

Yannick Barthe et autre,SOCIOLOGIE PRAGMATIQUE : MODE D'EMPLOI, Politix ,3/2013 N° 103,p 178.

Wiebke Keim, POUR UN MODÈLE CENTRE-PÉRIPHÉRIE DANS LES SCIENCES SOCIALES, Aspects problématiques des relations internationales en sciences sociale, Revue d'anthropologie des connaissances, 3/2010 Vol 4, n° 3.